دمشـــــق ...

للأستاذ علي الطنطاوي

« كتب إلي صديق كبير وأستاذ جليل ممن عرفت في مصر أن أصف له مدخل دمشق ، وأن أعرفه بمتنزهاتها وآثارها ، وإن ذلك لمطلب على مثلي عسير ، وحمل علي ثقيل ، وإني أحاوله اليوم محاولة ربما ينهض به من هو أضخم مني في زحمة الأدب منكبا ، وأحد فكرا ، وأمضى قلما .. » .

هذي دمشق يا أيها الأخ السائح ، قد لاحت لك أرباضها ، ودنت رياضها ، أفما تراها وأنت قادم عليها من نحو فلسطين[1] ، مع الصباح الأغر كيف نامت من غوطتها على فراش من السندس صنعته يد الله ، وقد توسدت ركبتي حبيبها البطل الشامخ بأنفه الصخري : قاسيون[2] ، فكان رأسها في الصالحية ، وقدمها في (القدم)[3] وقلبها في (الأموي) بيت الله الأطهر ، فانظر أما تراه أول ما يبدو من دمشق للقادم عليها ، يطل عليها بقبته التي ليس لها في الدنيا نظير : قبة النسر التي راعت بجلالها الأولين والآخرين وما رأى الرائي أضخم منها ولا أعلى ، ومآذنه الثلاث معجزات الصنعة في تاريخ العمران الإسلامي ، يسبغ على المدينة جلال القرون الأربعين التي رآها وعاشها ، مذ كان معبداً وثنياً ، إلى أن صار منسكا مسيحياً ، إلى أن استقر مسجداً إسلامياً ، يخرج من مناراته خمس مرات كل يوم النداء الأقدس : « الله أكبر لا إله إلا الله » فيردده إخوان مسلمون في المشرق ، وإخوان في المغرب حتى يفيض طهره على الأرض كلها . ألا تراه يعلو كل عمارة في المدينة على ما فيها من عمارات شاهقات ، حتى كأن أعلاها إلى جانبه الطفل بجنب الرجل الضخم الطوال ؟ فإن كان برج (إفّل) علم باريز وذلك التمثال علم نيويورك ، فعلم دمشق بيت الله العلي ذي الجلال .

لقد دنونا ، هذا المطار إلى يمينك ، وهذه القرية من ورائه (داريا)[1] ، والغوطة الغناء ، جنة الأرض ، ما رآها أحد إلا أحس بأنه يرى مدينة مسحورة من مدن (ألف ليلة ...) ، قد تراءت له في غمرة حلم ممتع ... لقد اقتربنا منها ... هذه (المزة) ضاحية دمشق ، أصح المنازل ، وأبعدها عن العلل ، مساكن العرب الغر من سالف الدهر ، لقد جاوزنا سهلها المشرق ، وجبلها المشرف ، وساحتها الفيحاء ، وعماراتها البارعات ، وولجنا حمى الغوطة . هذه بساتينها التي تتصل حافلة بالثمار ، مليئة بكل ما يفتن ويفيد ، مسيرة تسع ساعات على الماشي وما ينفك يمشي في ظلال شجرة مثمرة ، أو نبتة مزهرة ، ولو اجتمع على مائدة واحدة ما تخرج من الثمار من أنواع المشمش والعنب والتفاح والكمثرى والخوخ ... لاجتمع أكثر من ثلاثمائة صحن ما في صحن منها مثل ما في الآخر . وحسبك أن في الشام من العنب أكثر من خمسين نوعاً ... ومن التفاح فوق الثلاثين[2] ...

هذه هي الغوطة ، أفما ترى نساءها يلحن من بعيد وهن ساريات خلال الأشجار ، أو منثورات وسط الحقول ، بثيابهن التي لا يحببنها ، على سترها وشمولها ، إلا زاهية تضحك فيها الألوان ، فتحسبهن الزهر ، وتظن الربيع قد جاء في كانون[3] والأرض مفروشة ببسط نسجت بخيوط الذهب ، من صفرة الأوراق التي بعثرها وتركها الخريف ، فكانت كنثار الدنانير ، على بساط من السندس ، في عرس أمير ، والبقر الفاقع الصفرة الصافي اللون ، تماثيل في متحف الطبيعة صبت من خالص العسجد ، والشتاء إذ حل نخلعت فيه الأشجار ثيابها ، على حين يتدثر الناس بالصوف ،

---

(١) لدمشق أربعة مداخل : من الشمال يدخل منه القادم من بغداد ومن حمص وحلب فيسير على كروم دوما ، ويجتاز طرف الغوطة ، حتى يلج دمشق من سوق النصارى سالكا على (شارع بغداد) العظيم ، ومن الغرب يدخل منه القادم من بيروت ومن فلسطين ، ويلتقي الطريقان في أسفل عند الربوة ، ومدخلان في القطار يلتهيان في محطة الحجاز في شارع النصر .

(٢) قاسيون جبل دمشق علوه عن وجه البحر (١٢٠٠) متر وعن المدينة نحو (٥٠٠) وقد بلغت منازل حي المهاجرين والصالحية ثلثي علوه .

(٣) القدم قرية على باب دمشق من جهة الميدان ، تبعد عنها مسيرة عشر دقائق فقط .

(١) قرية من أكبر قري الغوطة وهي قديمة ذكرها ياقوت ، وهي مشهورة بنوع من العنب الفاخر لا يثمر إلا فيها . وفي الغوطة أكثر من خمس وعشرين قرية ، وقصبتها بلدة دوما .

(٢) في حديقة منزل عمي صلاح امين الخطيب ، في دمشق أربعة وعشرون نوعا من التفاح !

(٣) كانون الأول في لسان العرب هو (ديسمبر) في لغة الانكليز !

فكأنما هن الغيد الفوانى تمرين على الشط ، ليضنين الشباب لوعة وشوقا :

وما يتحين الشـــط يبغين برده
ولـكن ليقتلن البرىء (المغفلا ...)

فهذا الحور لم يبق منه إلا عيدان ، فكأن الحور فتية أذاب جسومهم الحب ، فأضحوا من جَواه جلداً على عظم ، والشمس كِلاح هجرهن الأحبة ، بعد ما قطفت زهراتهن ، فأين بلوعة ليست تنفع وحسرة ، ورحن إلى خزى لا يريم وإلى ألم ؟ والجوز العارى على جلاله ، ملك عزل واستلب منه تاجه ، ولـكنه كان عظيما فى نعمته . أما الزيتون ، وما أعظم الزيتون ، فلا يرى إلا لابساً ثيابه التى لا ينضيها ولا تبلى عليه ، ثابتا على حاله ، لا يحس بالغير ، ولا تستخفه الأحداث ، فلا يضحك بالزهر إن أقبل الربيع ، ولا يبكى إذا جاء الشتاء ، فهو الفيلسوف الساخر بالحياة ، أفراحها وأتراحها ، الذى لا يبالى نعمها ولا نقمها ، والسواقى وهن جوار من الشرق إلى الغرب ، ومن الغرب إلى الشرق ، ومن كل جهة إلى أختها : ساقية تجرى عميقة — بين الأعشاب ، لا يوصل إليها ، ولا ينال ماؤها ، وأخرى ظاهرة مكشوفة ، وواحدة تتحدر تحدراً ولها صخب وهدير — وثانية تسير صامتة فى أصول الأشجار وصافية نقية — وعكرة خبيثة — وسالـكة طريقها قانعة بمجراها ، وكاسرة حدودها عادية على غيرها ... ... فكأن سواقى الغوطة صورة لنا فى حياتنا نحن الناس ، كل يعمل على شاكلته ، وكل ميسر لما خلق له ، مول وجهته ساع إلى غايته ، والوجهات متعارضات ، والغايات مختلفات ، ولـكن كل ساقية تعرف طريقها ، والناس يهبطون إلى حضيض الشهوات والمعاصى على أهون سبيل ولـكنهم يلقون فى التسامى إلى معالى الأمور عنتا وأينا . وكذلك السواقى تنحدر بلا سَوق ولا تعب ، ولـكنها لا تعلو إلا أن تضخها مضخات وترفعها بآلات ، وهذا عميق النفس لا تدرك قرارته ولا تعرف حقيقته ، وهذا واضح بين ، ظاهره كباطنه — وهذا جياش صخاب ، وهذا صامت سكوت ، ونقى الطوية وخبيث الداخل ، ومنصف وظالم ، وكبير وصغير ، وكل يستمد من غيره ، ويمد سواه ، وكذلك السواقى فى الغوطة ...

***

هذه هى الغوطة إن يفتنك جمالها وبهاؤها ، فقد فتنت من قبلك ملوكا وقواداً وأدباء وعلماء ، وأنطقت بالشعر ناساً ما كانو من قبل شعراء ، وأشاعت فى الناس فرحة لا تنقضى ، ومافقدت على الأيام فتنتها ولا شاخت على طول المدى ، بل ازدادت شبا وفتوناً وحسناً ... هذه هى الغوطة رأيت جانباً منها فى الشتاء ولو رأيتها وهى مياسة فى حلل الزهر تختال فى أفراح الربيع ، عرس الدهر ، تملأ الدنيا بالعطر والسحر ، وتقرأ على القلوب أبلغ الشعر لرأيت عجبا ، ما يبلغ وصف حقيقته بيان !

***

لقد تركنا هذا الطريق القديم الذى يمر على ثكنات الجند ومنازل الجيش ، وملنا من هذه الجادة المحدثة إلى الشارع العظيم شارع فاروق الأول لندخل دمشق من أفخم مداخلها . هـذا هو يردى يا أيها الأخ ! وهذا ؟ ... أترى هذه العظمة وهذا الجلال أتسأل ما هذا الوادى ، وما هذه الأنهار تجرى فى سرة الجبل وهو السفح ، سبعة بعضها فوق بعض ، كعقود اللؤلؤ فى عنق كاعب العاج ، والشلالات تهبط من أعاليها إلى أسافلها ؟ هذا ياسيدى معبد الجمال ، هذا دير الحب ، هذا منسك القلوب ، هذه الربوة . لا يا أيها الأخ ، إن من الإلحاد فى شرعة الجمال أن نصف الربى ونحن نمر بها مرور الكرام باللغو ، إن لها حديثها وستسمعه إن شاء الله . ولقد قلت عنها كلاما كثيراً ، ولـكن مكان القول غير سمة ، وسأقول عنها إن أنا وفقت كلاما أكثر ، على أنه لا يغنى فيها كلام عن شهود ، ولا يجزىء بيان عن عيان ...

* * *

وصلنا يا أيها الأخ ؛ هذا ميدان دمشق (المرجة) وهذا النصب الفخم فى وسطه المتوج بتمثال مسجد السراى (اسطامبول) ، هو نصب التذكار بمد الأسلاك البرقية إلى دمشق (١) وهذا القصر الصخرى الهائل ، سراى أحمد عزت باشا ، وهذه دار البلدية ، وهذا البناء الرفيع الذرى ، نُزُل أمية ، وهذه الشوارع الثمانية الفضية إلى الميدان ، بسياراتها وتراماتها ، طرق أحياء دمشق ... أتعجب من هذه الخانات وهذه الملهيات . ومن كل السينمات ؟ هذه يا صاحبى (دمشق الجديدة ...) ، لا تلق فى

(١) الشائع فى العامة أنه تذكار مدسكة الحديد إلى الحجاز .

ما لا تلقى مثله فى أى مدينة كبيرة : خير وشر ، وعلم وجهل ، وتقى وفجور ، وحجاب وسفور ، حياة كالبحر فيه اللؤلؤ وفيه الحمى ، وفيه الحياة وفيه الموت . هذى دمشق التى مزقت ثوبها لتلبس ثوبا أوربيا ، فلم تجده على مقياسها فبقيت عريانة إلا من خرق وأسمال . هذه هى القبرة التى أراد لها حمقها أن تقلد الغراب فنسيت على جمالها مشيتها ، ولم تتعلم على قبحها خطوة الغراب . انزل فى نزل أمية ، أو فى فندق الشرق (أوريان بالاس) الضخم ، القائم هناك ، بحيث يشرف على بردى ووادية ، والشرف الأعلى ومغانيه ، وقاسيون وقصور المهاجرين ... تحس أنك فى (شبرد) القاهرة ، أو (الكونتنتال) — أعنى أنك فى أوربة ؛ فالأثاث والرياش ، والطعام والشراب ، والزى واللباس ، والسماع والغناء ، واللغة واللسان ، كل ذلك أوربى أوربى أوربى !

ولو أنك عرفت هذه (المرجة) فى عصورها الخوالى ؛ وهذان الشرفان الأعلى والأدنى ، وما كان فيهما من مدارس ومساجد وزوايا وتكايا ، وما قام الآن مقامها ، وأخذ مكانها ... ولكنى لن أسوق لك المزعجات وأنت قادم على البلد ، فاقرأ إن شئت ابن عساكر ، والمحاسن للبدرى ، ورحلة ابن بطوطة ، وما أظنك إلا قد قرأتها كلها !

هذه دمشق الجديدة ... أما دمشق العربية المسلمة ، بلدك وبلد خلائف الأرض من أبناء عبد شمس ، من إذا قالوا لبت الدنيا ، وإن مالوا مالت الأرض ، وإن حكموا أطاع الزمان ، من كانت دولتهم (تفصل ...) تسع عشرة من دول هذه الأيام ، من كانت راياتهم تخفق على بطاح فرنسا وسهول الهند ، وما بينهما وكانت قصورهم تتيه على النجوم ، وكانت أبوابهم تقف عليها الملوك . أما دمشق معاوية والوليد فليست هنا ، إنها مختبئة هناك فى دروب ضيقة وحارات حول المسجد الأطهر ، هناك المجد والعلم والتقى وبارع الجلال ، فامش إليها وادخل دورها ، وجالس أهلها ، تقرأ تاريخ المجد فى صفحات من دور ووجوه وعادات ، وتر بقايا الحضارات من لدن نوح قد استقرت فيها ، فى كل بقعة منها تاريخ ، وكل حجر منها يتلو من سور الجلال آيات .

فإذا أردت أن تعرفها وتصل إليها ، فاخرج من نزل أمية ، ومل قليلا تجد أمامك جامع الأمير (يلبغا) الذى سرقوا نصفه فجعلوه مدرسة للصبيان ، وتركوا منارته قائمة فى المدرسة ، تملن لكل ذى عينين شكواها وتذيع خبر بلواها ، فلا تقف عليه ، وخذ إلى يمينك ، إلى جادة الفنادق ، (الجوزة الحدباء) ، حتى تبلغ سوق صاروجا[1] الذى كان حى الباشوات من الأتراك والمجددين فصار الآن حى التجار المحافظين ، فرر فى طريقك جامع الورد[2] ثم سر إلى العقيبة ، منزل الإمام الأوزاعى[3] وادخل جامعها الأنور المبارك الذى لا يخلو من قائم لله بحجة ، جامع التوبة[4] ثم اسلك طريق العمارة ، وجز بزقاق النقيب ، وعرج على منازل علماء الأمس[5] ، فقد كانت هذه المنازل مدارس ، وكانت جامعات ، وكانت منائر هدى للناس ، وكانت هى دعائم نهضتنا ، وزر الكلية الشرعية ثم ادخل الجامع الأموى ، وامكث فيه وسائله عن الماضى واستنطقه ، وطر بروحك فى سمائه ، واسم بها إلى عليائه ، ثم عد إلى أحدثك إن شاء الله حديثه ، وإن حديثه لطويل !

ثم جل فى القيمرية ، ولج تلك الدور ، وشاهد تلك القاعات والأبهاء ، وهذه الزخارف والنقوش ، والبرك والنوافير ، فمنها يا سيدى أخذ الأندلسيون هندسة هاتيك القصور ، ومر بهذا الزقاق الذى تباع فيه القباقيب ، ولا تحقره لضيقه وفقره ، ثم انزل إلى تلك الحارة المعتمة القذرة ، فاقرع باب مصبغة هناك ، فإذا فتحوا لك فاهبط درجها ، ولا تفزعك رطوبتها وظلمتها ، ثم قف خاشعاً متذكراً معتبراً ؛ فإن فى مكان هذه المصبغة التى يسمونها (مصبغة الخضراء) كان قصر الخلفاء من بنى أمية ...

فإذا خرجت منها فاسأل عن زاوية هناك ، فإن فيها قبر معاوية الصغير (ابن يزيد) ، ثم اذهب إلى السميساطية تلك المدرسة المحدثة البناء ، العامرة ، فقف عليها فقد كانت منزل خامس الخلفاء الراشدين ، عمر بن عبد العزيز ، ثم أم المعاهد فى جوارها : الجقمقية

---

(١) نسبة إلى صاروجا ، الأمير صارم الدين من أمراء المماليك مات سنة ٨٤٣ والعامة تسميه سوق ساروجا .

(٢) ويقوم عليه العلماء آل عابدين من سلالة صاحب الحاشية .

(٣) وكانت يومئذ قرية فى ظاهر دمشق .

(٤) سمى بذلك لأنه كان خانا ترتكب فيه أنواع الموبقات ، فجعله أمير لا يحضرنى الآن اسمه وتاريخه مسجدا ، وهو أحد جوامع الاحياء فى دمشق ، ومنها جامع السادات فى حى الأقصاب ، ويلبغا فى سوق الخيل ، والسنانية فى باب الجابية ، نسبة إلى المهندس التركى المشهور صاحب المآثر العمرانية سنان باشا ، وقد وقف عليه أوقافا جليلة ، وجامع باب المصلى ، وسيدى صهيب ، وجامع منجك والدقاق فى الميدان وفيه (بسيط) نادر من عمل جدى العالم الفلكى محمد الطنطاوى المصرى الأزهرى الذى نزح من طنطا إلى دمشق وتوفى سنة ١٣٠٣ هـ وجامع محيى الدين بن عربى .

(٥) كالأمير العالم عبد القادر الجزائرى والمشايخ محمود الحمزاوى المفتى ومحمد الطنطاوى وسليم العطار وبكرى العطار وابن عابدين صاحب التكملة والكزبرى والحبال والعبادى والحسافى والشطى والطيبى والاسطوانى والخطيب والميق وغيرهم رحمهم الله أجمعين

ومدرسة بطل الدنيا صلاح الدين ، فقم على قبره ساعة ، وترحم عليه واحمد الله ، على أن تحزى ذلك الطاغية (غورو) وذل[١] والظاهرية[٢] دار الكتب ، والعادلية[٣] مثوى المجمع العلمي العربي ثم اسلك على باب البريد ، ومر بخرائب (المرادية) التي كانت إلى العهد القريب مدرسة عامرة ، حتى تزور العادلية ودار الحديث الأشرفية ، التي كان فيها البدر الحسني بقية السلف، وزر المارستان النوري ، الذي كان مستشفى كأكبر ما يكون مستشفى في هذه الأيام وكان مدرسة للطب ، ثم أم قبر الملك العظيم صاحب هذه المآثر نور الدين القائد الظافر والملك العادل والحاكم الكامل ، ثم ادخل القلعة ، وشاهد السور والأبواب ...

هذه دمشق ياسيدي ، أفيوفي حديث دمشق في مقالة ؟ فأمهلني أعد إليك محدثاً ... وأطل الحديث[٤].

هذي دمشق أقدم مدن الأرض[٥] وأجلها ، هواؤها أطيب هواء ، وماؤها أعذب ماء ، وطعامها أمرأ طعام ، ومنظرها أبهى منظر ، ومخبرها أحسن مخبر ، ولسانها أفصح لسان ، وسكانها من أكرم السكان ، فيها العلم والأدب ، والتقى والصلاح ، والحب فيها واللهو ، وفيها الفتون والجمال .

هذي دمشق كانت لب العربية ، وبقيت لب العربية ، وستطلع على العصور القوادم وهي للعربية لب وقلب وفؤاد ، لها لين الماء الذي يضحك به بردى ، وشدة الصخر الذي يشمخ به قاسيون ، وصراحة السهل الذي تزدهي به المزة ، وكرم الأرض التي تعطي (في الغوطة) أكلها أربع مرات في العام .

لحالين بردى ، ولكن بردى إذا ضويق بالسدود ، علا وفاض واجتاح البلاد والعباد ، ودمر كل شيء يقف في طريقه ، ويقطعه عن مراده ، فقل للغافلين : « لا يغرركم من بردى لينه وابتسامه » فإنه سرعان ما يعبس ويثور » . فاتقوا غضبة الحليم !

(دمشق) **علي الطنطاوي**
القاضي الشرعي
ومدرس الأدب بالكلية الشرعية (العليا)

(١) لما دخل عدو الله غورو مدفن السلطان ، استل سيفه وقال : الآن انتهت الحروب الصليبية !

(٢) والذي يعود إليه الفضل في إنشاء المكتبة الظاهرية ، إذ جمع فيها الكتب التي كانت متفرقة في المساجد والزوايا ، هو مربي الجيل العلامة الشيخ طاهر الجزائري أحد نوادر الدنيا علما وعملا وصراحة وتدليكا ، وشرف نفس وجرأة وسعيا للمصلحة العامة ، وبفضله أنشئت المدارس الابتدائية في دمشق

(٣) نسبة للملك العادل محمد بن أيوب أخي السلطان صلاح الدين ، انتهى إليه ملك مصر والشام واليمن وأرمينيه وكان ملكا عظيما توفي سنة ٦١٥ ودفن في مدرسته ، التي اتخذها المجمع العلمي العربي في دمشق داراً له ، وكان يسكنها القاضي المؤرخ الأديب ابن خلكان ، وحول بركتها كان يدور ليله ويهتف بيتيه المعروفين أما الظاهرية فنسبتها إلى الملك الظاهر بيبرس قائد المظفر صاحب الوقائع الهائلة وله تاريخ طويل ومآثر مشهورة توفي سنة ٦٧٦ ودفن في هذه المدرسة ، وضريحه في قاعة من أنفس القاعات الباقية في دمشق .

(٤) انظر العدد ٥٢ من الرسالة سنة ١٩٣١ والعدد ٣٤٠ سنة ١٩٤٠ و ٤١٩ سنة ١٩٤١ وكتابي (في بلاد العرب) .

(٥) أعني المدن العامرة ، فأروني مدينة عامرة أقدم منها ؟

محمود حسن إسماعيل :

عازف اللحن القروي الخالد

أغاني الكوخ

وصاحب ديوان

هكذا أغني

يقدم للشرق العربي ديوان

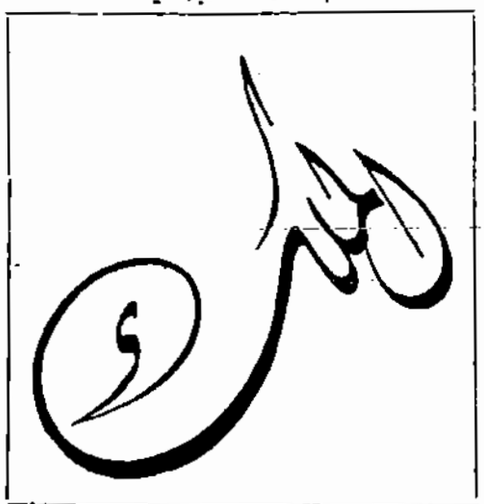

أروع ما اهتزت له أعطاف الشعوب من أغاني الحرية

ظهر اليوم في جميع المكتبات بمصر والشرق

ثمن النسخة العادية ٣٠ ص

والطبعة « الفاخرة » جنيه مصري

تطلب من صاحب الديوان